فكرة التفسير الموضوعي
بين الموضوعية والإدعاء

أ. خيال طيفور

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران

الحمد لله الذي من علينا بالقرآن وهدانا لنعمة الإسلام، خلق الإنسان علمه البيان،القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، الذي لا يبلى بتقدم الزمان ،بل يزيده الزمان تألقا ومصداقية: " ".سورة فصلت

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: " ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث،إذا عرف تفسيرها وما اريد بها من جهة النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يُحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع، كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف باللغة، كالشمس والقمر ، ونوع يُعرف بالعرف، كلفظ القبض ، ولفظ المعروف في قوله:{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. } ونحو ذلك ...

فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ما يراد بها في كلام الله ورسوله ، وكذلك لفظ الخمر وغيرها، ومن هنا يعرف معناها،فلو أراد أحد أن يفسّرها بغير ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل.

أما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها، فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام وهو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن، لكن معرفة المراد بها لا يتفق على هذا " [1]

ثم قال:" بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوكُ الألفاظ وأجلها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قُدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها؛ فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرّد الاحتمال النحوي والإعرابي .

ثم قال ابن القيم: " فتدبر هذه القاعدة ، ولتكن منك على بال فإنك تنفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه".

إن أحق علم تصرف له عناية المرء هو كتاب الله، وقد نبه الإمام أبو جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ إلى هذا فقال في مقدمة تفسيره: "اعلموا عباد الله رحمكم الله أن أحق ما صرفت إلى علمه العناية وبلغت في معرفته الغاية ما كان لله في العلم به رضى، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وأن أجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه وتنزيله الذي لا مرية فيه "[2].

إن الحقيقة أن جميع العلوم الإسلامية دُرِست حتى دَرَست، و أصيبت بتخمة البحث وبداية كانت أكثر العلوم شيوعا الحديث النبوي الشريف، فألف في متنه ومصطلحاهورجاله، وتتبعوا كل صغيرة وكبيرة فيه.

ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:" هذه دراسة جديد للقرآن الكريم، سبق أن قدمت نماذج لها في بعض ما كتبت. وقد لازمني شعور بالقصور وأنا أمضي فيها، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلي، ولكني حرصت على أن أزداد فقها في القرآن وتدبرا لمعانيه. والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيرا موضوعياً لكل سورة من الكتاب العزيز. والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي: الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام. أما الأول فهو يتناول السورة كلها، يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لأخرها، وآخرها تصديقا لأولها. ولقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها. وانبه إلى هذا التفسير الموضوعي لا يغني أبدا عن التفسير الموضعي بل هو تكميل له وجهد يضم إلى جهوده المقدورة. وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعي لم أتعرض له، وهو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه، وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس. وقد قدمت نماذج لهذا التفسير في كتابي " المحاور الخمسة للقرآن الكريم" و "نظرت في القرآن" ولا ريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الأخر، بل يري البعض أن المستقبل لها! والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وجعله هدى لأولى الألباب، وحصنه من الخطأ ومحضه للصواب."

والبحث في التفسير الموضوعي من الناحيتين النظرية التأصيلية ، والناحية التطبيقية لا زال فيه نقص كبير، ولا سيما في المطبوعات، فلعل أول من كتب في التفسير الموضوعي من الناحية التأصيلية هو الشيخ أحمد الكومي رحمه الله وهو قد توفي بعد في حدود سنة 1383هـ. ثم توالت المؤلفات بعد ذلك، وكلها تدور في فلك بعض، فليس هناك تجديد.

1-دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور أحمد العمري
2-دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر بن عواض الألمعي
3-البداية في التفسير الموضوعي للدكتور عبدالحي الفرماوي
4-الفتوحات الربانية في التفسير الموضوعي للدكتور حسين أبو فرحة
5- المدخل في التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار فتح الله

6- مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم .
7- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للدكتور زياد خليل محمد الدغامين
9- التفسير الموضوعي بين الفكرة والتطبيق للدكتور عبد الغفار يوسف
10- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه للدكتور أحمد عبد الله الزهراني
11- مقدمة في التفسير الموضوعي – محمد الخضيري
12- التفسير الموضوعي لسورة الكهف عبد الحميد طهماز
13- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم
14- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق. للدكتور صلاح الخالدي
15- التفسير الموضوعي : التأصيل والتمثيل للدكتور زيد عمر عبدالله
16- التفسير الموضوعي للقصص القرآني على ضوء الوحدة الموضوعية للسورة . أ/مليكة نايت لشقر – ماجستير –
17- الاتجاه الموضوعي في تفسير القرآن الكريم بالمغرب : الشيخ محمد المكي الناصري نموذجا من خلال تفسيره التيسير في أحاديث التفسير /أمينة أبوالفيال – دكتوراه –
18- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : مفهومه, تطوره, منهجه, نموذج منه /أحمد عبادي – : دكتوراه
19- التفسير الموضوعي : دراسة تاريخية نقدية /محمد محمود محمد بني الدومي – : ماجستير
20- نعم الله على الإنسان في ضوء سورة النحل : دراسة في التفسير الموضوعي /عبداللطيف عبدالرحمن سليمان – : ماجستير
21- التفسير الموضوعي مفهوماً ومنهجاً . الطاهر الميساوي
22- دراسات من التفسير الموضوعي .للأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي.
23- التفسير الموضوعي للأستاذ الدكتور توفيق علوان
24- التفسير الموضوعي لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله ،جمع أصوله وحقق نصوصه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الرحمن عميره.
25- نماذج من التفسي الموضوعي للدكتور محمد نبيل غنايم
26- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي .
27- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، محمد البهي.
28- البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني
29- التفسير الموضوعي لسورة القصص، مكتبة الجامعة الإسلامية، غزة.محمود عبد الخالق(1423هـ – 2001م)
30- التفسير الموضوعي لسورة النمل.البلبيسي، حسن محمد(1424هـ – 2003م)
31- التفسير الموضوعي لسورة إبراهيم، مكتبة الجامعة الإسلامية.الرملي، كفاح عبد الرحمن(1425هـ – 2004م)
32 اللوح، عبد السلام، وآخرون(1424هـ – 2003م) مباحث في التفسير الموضوعي، مكتبة الجامعة الإسلامية، غزة، ط1.
33- مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت.مسلم، مصطفى (1410هـ – 1989م)

ولم يظهر مصطلح " التفسير الموضوعي" إلا في القرن الرابع عشر الهجري إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –[3]

وبما أن التفسير الموضوعي ظهر حديثاً؛ لذا لم يتكلم المفسرون السابقون عن قواعده وخطواته وألوانه، ولكن العلماء والباحثين المعاصرين أقبلوا عليه يدرسونه ويقصدونه ويتحدثون عن قواعده وأسسه وكيفيته.

فظهرت مؤلفات كثيرة في هذا المجال ومنها كتاب " الأشباه والنظائر" لمؤلفه مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة 150هـ وذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآية الكريمة.

وإلى جانب هذا اللون ظهرت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية بل جمعت بين الآيات التي تربطها رابطة واحدة أو تدخل تحت عنوان معين، كالناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام التوفي سنة 224هـ ولازال هذا الخط مستمر إلى يومنا هذا[4]

وقد توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الك ريم حول معطيات الحضارات المعاصرة وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية، والعلوم الكونية والطبيعية.

ومثل هذه الموضوعات لا تكاد تتناهى فكلما جد جديد في العلوم المعاصرة، التفت علماء المسلمين إلى القرآن الكريم ليسترشدوا بهداياته وينظروا في توجيهات الآيات الكريمة في مثل هذه المجالات[5]

وألف في الفقه الإسلامي ما ذاقت به المكتبات، حتى بلغت حد التخمة كذلك. وتحول الفقه اليومي إلى حد فقه الاحتمالات الممكنة، وصارت له أصول وحواشي وعلى الحواشي حواشي. وتعدد كتب العقيدة حتى ظن البعض أن هناك عدة عقائد في هذا الدين. ومع كل هذا كانت الدراسات التفسيرية قليلة شحيحة بل كان معظمها مكررا منقولا متشابها يدور وغير متشابه، معظمه حول التفسير بالمأثور. ولم تطفو إلى السطح دراسة جادة تخص موضوعا معينا من قضايا الحياة أو تخص موضوع سور قرآنية واحدة تبين معالمها أو محورها أو موضوعها الأساسي.. بمعنى تفسيرا موضوعيا حيا. بل الأغرب من ذلك أن سيطرة الفقه امتدت إلى التفسير فألف في ذلك عناوين متشابهة بعنوان (أحكام القرآن) كل من أبي بكر الرازي المعروف بالجصاص الحنفي (ت 370)وابن العربي المالكي (ت 543) و إلكيا الهراسي الشافعي (ت 504).الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . وغيره كثير وكأن هذا الدين جاء من أجل الفقه فقط.

وبإزاء التفسير العام في عصور التدوين كان التفسير الموضوعي للمباحث الخاصة يسير معه جنبًا لجنب، فألَّف ابن القيم كتابه: التبيان في أقسام القرآن، وألَّف أبو عبيدة كتابًا عن مجاز القرآن، وألَّف الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، وألَّف أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ، وألَّف أبو الحسن الواحدي في أسباب النزول، وألَّف الجصاص في أحكام القرآن، وتتابعت الأبحاث القرآنية في العصر الحديث ولا يخلو واحد منها من تفسير لبعض آيات القرآن لجانب من الجوانب.

يقول الشيخ محمد الغزالي ــرحمه الله ــ في كتابه الرائع والرائد (كيف نتعامل مع القرآن):" كان الأفضل بدلا من تدريس الوضوء خلال ثلاثة شهور، تدريس :لماذا هلك عاد؟ ما الفساد الذي دب في بني إسرائيل؟كيف تحولت الحقيقة إلى شكل ؟وكل هذا ممكن خلال دراسة القصص القرآني."

و يقول"هناك منهج أو مدرسة الأصوليين: وفيه دقة النظر واستنباط الأحكام آخر من ظهر فيها_ ثم جمدت بعده حتى كادت تموت _ هو الإمام الشاطبي (ت 790)في كتاب الموافقات، وتوقف بعده علم الأصول عن العطاء، وتحول على يد المتأخرين إلى علم مضحك:

الخلاصة..التلخيص..الملخص..الموجز..المتن..الشرح..الحاشية..وكأننا نطحن الماء فلا يزيد ولا ينقص."

أما مثاله عن الفساد فيقول":الاستبداد السياسي نموذجه فرعون والاستبداد الاقتصادي والظلم الاجتماعي ونموذجه قارون".[6]

إذا ما هو التفسير المثالي أو التفسير الموضوعي ؟ وما هي الأقلام التي حامت حول هذا الموضوع ولم تعطيه حقه من الدراسة؟

التفاسير متعددة ومتنوعة خاصة في العصر الحديث الذي شمل علوما عدة وتخصصات مختلفة. من أجل هذا لا يمكننا الحديث عن كل هذه الأنواع و جدوتها، بل نختصر حديثنا كما هو مبين في العنوان عن التفسير الموضوعي لأهميته القصوى وعلاقته بالسورة القرآنية الواحدة.

فالباحث في التفسير الموضوعي يختار لفظاً أو موضوعاً قرآنياً، ثم يفسره تفسيراً تحليلياً أو إجمالياً بحسب حاجته وغرضه من موضوعه. فهو يبدأ بموضوع وينتهي بمنهج قرآني في الحديث عن هذا الموضوع ، وفيما بينهما تفسير قائم على قواعد المفسرين وطرائقهم في بيان معاني كلام الله عز وجل

و يعد أول من قسم التفسير إلى أنواع من هذا القبيل الدكتور أحمد جمال العمري في كتابه " دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني "وقد ذكر ثلاثة أبواب : التحليلي ,الإجمالي ,الموضوعي

وقد ذكر الأستاذ الدكتور فهد الرومي في كتابه (بحوث في أصول التفسير ومناهجه) لونا رابعا وهو التفسير المقارن. وهو مسبوق فيه.

وإن كان هذا التقسيم قد وجدت له إشارات عند بعهض العلماء وعلى رأسهم الشيخ شلتوت أول من ذكر هذا المصطلح عندما ألف كتابه (القرآن والمرأة).

وهناك كما هو معلوم كتاب للدكتور الكومي سماه (التفسير الموضوعي) قسّم فيه التفسير إلى أنواع أربعة الثلاثة السابقة وذكر فيها المقارن.

وتكم أهمية هذه التقسيمات في الدراسات التفسيرية وذلك أنها قد تساعد في توجيه الدراسات إلى واحد من هذه الأقسام فالممارس للعمل التفسيري إما أن يدرس التفسير بالطريقة التحليلية أو الطريقة الإجمالية أو الموضوعية أو المقارنة، ففي هذا فائدة عظيمة، خاصة أننا نعيش اليوم عصر المنهجية العلمية التي تؤمن بالتقسيم والتفريع، فوجود مثل هذه التقسيمات مهم وضروري.

وقبل الخوض في ذلك نتعرض إلى المعنى الحقيقي والتعريف الأمثل لهذا النوع من التفسير.

يتألف مصطلح (التفسير الموضوعي) من جزأين. مركبا تركيبا وصفيا، فلا بد من تعريف الجزأين أولا ثم تعريف المصطلح المركب منهما.

مصدر على وزن تفعيل، فعله الثلاثي " فَسَر" والفعل الماضي من المصدر " تَفَسَّر" مضعف بالتشديد، وهو " فسَّر يُفَسر تفسَيرا" أي هو الكشف والبيان والتوضيح للمعني المعقول وإزالة إشكاله وكشف مراد الله فيه

التفسير لغة: هو من الفسر وهو الكشف والبيان والإيضاح ،ومنه قوله تعالى:" ". سورة الفرقان. أي أحسن توضيحا وبيانا للمطلوب .

وجاء في المعجم الوسيط حول مادة فسر ما يلي:

فسر الشيء أي وضحه.

وفسَّره بالتشديد وضحه . و فسَر آيات القرآن الكريم أي شرحها ووضح ما تنطوي عليه من معاني وأسرار وأحكام.

استفسر عن كذا أي سأله أن يفسره له[7]

وجاء في لسان العرب: الفسر البيان وفسره بينه.

والفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل
والتفسير والتأويل معنى واحد، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.[8]
تعريف الموضوع:

قال الفيروز آبادي:" الإبل وضيعة؛ أي رعت الإبل حول الماء ولم تبرح و وضعتها أي ألزمتها المرعى فهي موضوعة[9]
ويقول الجوهري:" الضعة شجر من الحمض يقال ناقة واضعة للتي ترعاها. أي ولم تبرح الرعي حول الماء .[10]
الموضوع لغة: مشتق من الوضع.
والوضع: جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض أو بمعني الالتقاء والتثبت في المكان.

الأول: وضع مادي حسي، ومنه: وضعه على الأرض، بمعني حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

الثاني: وضع معنوي، ومنه: الوضيع، وهو الدنيء المهان الذليل، الذي قعدت به همته أو نسبه، فكأنه ملقى على الأرض، موضوع عليها: لا يفارق موضعه الذي التصق به أي أن النوعين يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مفارقته، أي أن التفسير مع الموضوع لا يفارقه.

أما المعنى المركب فيعرفه عبد الستار السعيد في كتابه المدخل بما يلي: "هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع."[11]
فقولنا "علم" جنس في التعريف.

وقولنا:"يبحث في قضايا القرآن الكريم " قيد لإخراج التفسير الذي يبحث في الألفاظ والتراكيب ونحوها كالتفسير التحليلي.

و قولنا "المتحدة" يخرج القضايا التي ليس بينها وحدة في المعنى أو في الغاية، فالبحث فيها لا يكون من التفسير الموضوعي.

و قولنا "عن طريق جمع آياتها" لإخراج بحث القضية في موضعها من السورة من خلال الآية التي يتناولها المفسر على ترتيب المصحف الشريف."[12].

وإن كان هذا التعريف مانعا من دخول غيره فيه، إلا أنه ليس جامعا لكل أنواع التفسير الموضوعي، فالذي نعتقده أن الأولى بإطلاق هذا المعنى أن يكون حول موضوع السورة القرآنية الواحدة. فهي التي تتطرق إلى موضوع معين اختاره الله تعالى لها. أما الموضوعات المقترحة من عند البشر المستخرجة من القرآن الكريم، فتعد موضوعات بشرية على ضوء القرآن الكريم . وليست تفسيرا موضوعيا بل الأجدر أن يطلق عليها موضوع من القرآن الكريم.

وعرفه الأستاذ باقر الصدر بقوله" الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير: هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس. مثلا عقيدة التوحيد في القرآن أو يبحث عن النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن أو عن سنن التاريخ في القرآن .....و هكذا يستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم، وبالتالي للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع.."[13]

ويستدرك في موضع آخر فيقول:"ليست كل عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية الكونية وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده"[14].

قد سررت كثيرا بقوله "دراسة موضوعية" نعم يمكن أن نسميها دراسة موضوعية لكن لا أوافق أن تسمى تفسيرا موضوعيا. فالتفسير مادة تحمل نوعا من القداسة، ويتقبلها المتلقي أو القارئ بنوع من التلقائية والمصداقية، بخلاف قولنا دراسة موضوعية قرآنية.

وعرفه الدكتور عبد الحي الفرماوي بأنه: "جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد التي اجتمعت في موضوع ما. وترتيبها حسب النزول ما أمكن ذلك، مع الوقوف على أسباب نزولها ثم تناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، وإفرادها بالدرس المنهجي الموضوعي، الذي يجليها من جميع نواحيها وجهاتها ووزنها بميزان العلم الصحيح الذي يبين الباحث معه الموضوع على حقيقته ويجعله يدرك هدفه بسهولة ويسر. ويحيط به إحاطة تامة تمكنه من فهم أبعاده والذود عن حياضه"[15].

أما الدكتور أحمد السيد الكومي فيعرفه بما يلي:"هو بيان الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد وإن اختلفت عباراتها وتعددت أماكنها، مع الكشف عن أطراف ذلك الموضوع حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافة، وإن أعوزه ذلك لجأ إلى التعرض لبعض الأحاديث المناسبة للمقام لتزيدها إيضاحا وبيانا"[16]

وقد عرّفه د. عبد الستار فتح الله سعيد، في كتابه (المدخل إلى التفسير الموضوعي)، فقال: "هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع".

لعل أشمل تعريف وقف عليه الباحث لهذا العلم مما ذكره الدكتور مصطفى مسلم بقوله: " هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"[17]

التفسير الموضوعي هو إفراد الآيات القرآنية التي تعالج موضوعا واحدا وهدفا واحدا، بالدراسة والتفصيل، بعد ضم بعضها إلى بعض، مهما تنوعت ألفاظها، وتعددت مواطنها – دراسة متكاملة مع مراعاة المتقدم والمتأخر منها، والاستعانة بأسباب النزول، والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح المتعلقة بالموضوع.[18]

ونلاحظ أن هذه التعاريف جملة تستند إلى موضوع معين يستهدفه الباحث، ولم يلتفتوا إلى موضوع السورة الواحدة. بخلاف ثلة قليلة أمثال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله الذي يطلق مصطلح جديد يخص السورة القرآنية الواحدة أطلق عليه الوحدة العضوية للسورة القرآنية .

ويقول الدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني:"كل معنى جزئي مستفاد من جملة قرآنية له ارتباط بما تفرق في القرآن من معان تلتقي معه في موضوع واحد، وله ارتباط آخر وثيق بمعاني الجمل الأخرى التي اشتملت عليها الآية، كما أن الآية ذات ارتباط وثيق بوحدة موضوع السورة"[19].

ويقول أيضا: على المتدبر كتاب الله أن يضع نصب عينيه ضمن أهداف بحثه وتدبره التوصل إلى اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية، وهذا يستدعي منه أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثا كليا شاملا للسورة، ويتتبع ارتباط آياتها ومعاني جملها، أو بما تفرع عنه من عناصر، وما اتصل به من موضوعات جزئية وأحكام وشواهد.[20]

لكن الحقيقة الاصطلاحية التي نخرج بها بعيدا عن اللف والدوران ، ونحن نلوك هذه التعاريف هي أن المراد كله، أو المراد دراسته،أو المراد النظر إليه ، هو الموضوع على الطاولة لا غيره وهو بهذا المعنى يأخذ نفس المعنى الفرنسي le sujet أي المطروح للفك أو التحليل أو الإجابة إن كان سؤالا مطروحا أو موضوع نقاش.

إن التفسير الموضوعي لا يبتعد أبداً عن بيان مراد الله تعالى من كلامه، وإنما هو يغوص في تلك المعاني والكلمات بصورة إجمالية، ليستخلص منها نظرة كلية وموضوعية ، إذن هو فهم عام لمعاني كلام الله تعالى

إن للتفسير الموضوعي نشأة نبوية وجهد واضح من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى أن للسلف الصالح كان لهم سبق الفضل واليد الطولى في التأصيل لهذا الفن، من خلال إيجاد وحدة موضوعية لفكرة طرأت في ذهن صحابي استفسر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان منه صلى الله عليه وسلم التفسير لما أشكل عليهم رضي الله عنهم لحدث وقع. أو استفسار من تابعي لصحابي.

وبالتالي فإن انطلاقة التفسير الموضوعي بداية كانت من التفسير التحليلي الذي كان وما زال له الفضل وهو الأساس للتفسير الموضوعي، الذي يرجع إلى تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير السنة بالقرآن وكذلك تفسير الصحابة للقرآن، والتابعين وعلماء الأمة. كما إن أنصار التفسير الموضوعي لم يعترضوا على من سبقوهم من مفسرين ومؤصلين للتفسير التحليلي، بل كان التفسير التحليلي منهلا ومنبعا لهم.

من هنا ندرك نوعية العلاقة التكاملية والانسجام بين التفسير الموضوعي وبقية أنواع التفاسير الأخرى.

أقسام التفسير الموضوعي:

ويمكن حصر أقسام هذا التفسير في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني: بحيث يختار الباحث لفظة أو مصطلحاً، تتكرر في القرآن كثيراً، فيتتبعها من خلال القرآن، ويأتي بمشتقاتها ويستخرج منها الدلالات واللطائف.

القسم الثاني: التفسير الموضوعي لموضوع قرآني: بحيث يختار الباحث موضوعاً من القرآن، له أبعاده الواقعية في الحياة أو العلم أو السلوك.....، مما يفيد المسلمين منه ويشكّل منه موضوعا معينا، يخرج بخلاصة تساعد على حل مشاكل المسلمين ومعالجة أمورهم.

القسم الثالث: التفسير الموضوعي للسور القرآنية: وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن، تكون مدار بحثه – وهذا موضوع الباحث في هذا البحث – ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة.

وهناك نوع رابع من أنواع التفسير الموضوعي وهو: [التفسير الموضوعي للقرآن الكريم متكاملا]، بحيث تتضافر جهود عدد من الطلاب للبحث في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وإخراجه في صورة واقعية وإلى حيز الوجود.

أما السائد في الدراسات القديمة أن تكون المواضيع مرتبطة بغاية واحدة، ولا تربطها علاقة المعاني وأمثلة ذلك كثيرة.

فآيات الأحكام مثلا؛ تضم، الصلاة، الزكاة، الجهاد أو أقسام القرآن وغيرها.و ألف فيه الكثير من أمثلة ذلك:

نيل المراد من تفسير آيات الأحكام لمحمد صديق خان (1307هـ) الدستور القرآني في شؤون الحياة. محمد عزة (ولد عام 1305) وغيرها من المؤلفات. سادت النزعة الروائية والحديثية للتفسير حيث أن التفسير لم يكن في الحقيقة وفي البداية إلا شعبة من الحديث بصورة أو بأخرى وكان الحديث هو الأساس الوحيد تقريباً ، مضافا إلى بعض المعلومات اللغوية والأدبية والتاريخية ، التي يعتمد عليها التفسير طيلة فترة طويلة من الزمن ، ومن هنا لم يكن بإمكان تفسير يقف عند حدود المأثور من الروايات عن الصحابة والتابعين والأئمة أن يتقدم خطوة أخرى وأن يحاول تركيب مدلولات القرآن والمقارنة بينها واستخراج النظرية من وراء هذه المدلولات اللفظية . التفسير كان بطبعه تفسيرا لفظيا ، تفسيرا للمفردات وشرح بعض المستجد من المصطلحات وتطبيق بعض المفاهيم على أسباب النزول، ومثل هذه العملية لم يكن بإمكانها أن تقوم بدور اجتهادي مبدع في التوصل إلى ما وراء المدلول اللغوي واللفظي في التوصل إلى الأفكار الأساسية التي حاول القرآن الكريم أن يعطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة.

هذين الاتجاهين المختلفين في تفسير القرآن الكريم ، فالفقه هو بمعنى من المعاني تفسير الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نعرف من البحث الفقهي أن هناك كتبا فقهية شرحت الأحاديث حديثا حديثا ، تناولت كل حديث وشرحته وتكلمت عنه دلالة أو سندا أو متنا ، كما نجد ذلك في شراح الكتب الأربعة و شراح المسائل غير أن القسم الأعظم من

الكتب الفقهية والدراسات العلمية في هذا المجال لم تتجه هذا الاتجاه بل صنف البحث إلى مسائل وفقا لوقائع الحياة وجعلت في إطار كل مسألة الأحاديث التي تتصل بها وفسرتها بالقدر الذي يلقي ضوءا على تلك المسألة ويؤدي إلى تحديد موقف الإسلام من تلك الواقعة التي تفترضها المسألة المذكورة وهذا هو الاتجاه الموضوعي على الصعيد الفقهي بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئي في التفسير والفقه على حد سواء.وكان يطلق عليه فوائد الحديث.

فإذا طبقنا ها التعريف على جميع التفاسير الموضوعية اليوم، وخاصة التفسير الموضوعي للسورة القرآنية الواحدة أو ما يطلق عليه الوحدة العضوية أو الموضوعية، لا نكاد نظفر بشيء من ذلك. إلا بعض النتف هنا وهناك وليس هناك من عمل عملا مستقلا بذاته.

فسيد باقر الصدر يرى أن هناك اتجاهين في التفسير الموضوعي ويطلق على أحدهما اسم « الاتجاه التجزيئي في التفسير » وعلى الآخر اسم « الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير » الاتجاه الأول : الاتجاه التجزيئي المنهج الذي يتناول المفسر ضمن إطاره القرآن الكريم آية فآية وفقا لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف ، والمفسر في نطاق هذا المنهج يسير مع المصحف ويفسر قطعاته تدريجياً بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور أو المأثور من الأحاديث أو العقل أو الآيات الأخرى التي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم بالقدر الذي يلقي ضوءا على مدلول القطعة القرآنية التي يراد تفسيرها مع أخذ السياق الذي وضعت تلك القطعة ضمنه بعين الاعتبار في كل تلك الحالات .

الاتجاه الثاني: ويسميه الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير

هذا الاتجاه لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بلطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي ، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس . مثلا عقيدة التوحيد في القرآن أو يبحث عقيدة النبوة في القرآن أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن أو عن سنن التاريخ في القرآن أو عن السماوات و الأرض في القرآن الكريم وهكذا

ويستهدف التفسير التوحيدي أو الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون ، وينبغي أن يكون واضحا أن الفصل بين الاتجاهين المذكورين ليس حديا على مستوى الواقع العملي والممارسة التاريخية لعملية التفسير لأن الاتجاه الموضوعي بحاجة قطعا إلى تحديد المدلولات التجزيئية في الآيات التي يريد التعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يتبناه ،كما أن الاتجاه التجزيئي قد يعثر في أثناء الطريق بحقيقة قرآنية من حقائق الحياة الأخرى .[21]

كل هذه التنظيرات باستثناء القلة القليلة ،متفقة على أن تحديد أي موضوع قرآني معين ودعمه بآيات من القرآن الكريم؛ يعد تفسيرا موضوعيا، وأن اهتمامهم بموضوع السورة القرآنية كان التفاتة لم يحرصوا عليها رغم إلحاح بعضهم على أهميتها والتنويه بفضلها وشئنها.

ومن ناحية أخرى هناك من انصب جهده على هذا الاتجاه ؛ غير أن التكلف والتعسف لإيجاد موضوع السورة القرآنية وعلاقتها بالسور المجاورة حال دون ذلك الهدف. فالإمام برهان الدين ألبقاعي (ت 885) خطا خطوة جادة وجريئة في ميدان التفسير الموضوعي للسورة القرآنية غير أن تكلفه ربما كان سببا في نفور بعض العاملين في هذا الإتجاه. فهو لم يكن ملزما أن يتعرض إلى كل القرآن الكريم سورة سورة وأن يتعرف على موضوع كل سورة ، وهذا الاقتحام سبب تعثرا كان من شأنه أن حاد عن معظم محاور السور القرآنية[22]

أما في العصر الحديث فالاهتمام بموضوع السورة القرآنية ؛ جلب اهتمام الباحثين ونظروا له ومنهم من عمل في بعض السور القرآنية بدقة متناهية أمثال الأستاذ عادل عبد الله القلقيلي[23] وسيد قطب وسعيد حوى ومحمد الغزالي ورغم ذلك لم ترسو هذه السفية على تعريف منضبط ونهائي ؛وحسب ظني أن ذلك لن يكون لأن هناك إشراقات ربانية قد تتاح للبعض دون البعض. فيعرف بها هذا دون ذاك موضوع السورة القرآنية ، مثلما جرى مع عبد الله ابن عباس . رضى الله عنه . في تفسيره سورة الفتح.

والنتيجة التي نخلص إليها من وراء هذا البحث، هي أن المفسر لهذا النوع من التفسير الموضوعي، بعد أن يتوفر على الشروط التي تأهله لذلك ليس ملزما بتغطية كل السور القرآنية من جهة، وإلا وقع في التعسف الذي ذكرناه سابقا. ومن جهة أخرى عليه أن يلتزم التأني مع كل سورة قرآنية وأن يطلب المعونة من الله تعالى في اكتشاف ذلك ولو طال به البحث. ويحذر الإمام الشوكاني . رحمه الله تعالى . في تفسيره فتح القدير من التجني والإيغال في ذلك، حيث قال:" فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عزّ وجل ، فقد غلط أقبح الغلط ، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط ، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعاً إلى لغة العرب ، وعلومها فهو كذب بحت ، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك ، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرَّطَانة ، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف ، أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ، ويفيد معناه ، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره .

ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟ وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادّعوه من لغة العرب ، وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين :

الأوّل التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه ، والوعيد عليه ، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه ، والصدّ عنه ، والتنكُّب عن طريقه ، وهم أتقى لله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبةً لهم يتلاعبون به ، ويضعون حماقات أنظارهم ، وخُزَعْبَلات أفكارهم عليه .

الثاني التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيع الواضح ، والسبيل القويم ، بل الجادة التي ما سواها مردوم ، والطريقة العامرة التي ما عداها معدوم ، فمن وجد شيئاً من هذا ، فغير ملوم أن يقول بملء فيه ، ويتكلم بما وصل إليه علمه ، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري ، أو الله أعلم بمراده ، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه، ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية ، وتراكيب مفهومة ، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ ، فكيف بما نحن بصدده؟ فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً ، ولكلام العرب فيه مدخلاً ، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير". [24]

وما نخلص إليه أن ما يمكن أن نطلق عليه تفسيرا موضوعيا هو ما يخص السورة القرآنية الواحدة وعلاقتها بالسور المجاورة لها، إن أمكن ذلك دون تعسف، حتى تمسي السورة كالصورة محددة الأطراف، متكاملة الأوصاف، متناسقة الألوان، لا يشوبها غموض ولا يعتريها إبهام. فمن توصل إلى شيء من ذلك عُدَ تفسيريا موضوعيا، ومن لم يتمكن من ذلك فعليه أن يعاود الكرة حتى يهديه الله إلى موضوعها. ومن تدبر قليلا في بعض السورة القرآنية على سبيل المثال . والتي لا يكفي المجال لسردها . فإن موضوع سورة الطارق هو الحفظ، وموضوع سورة القيامة هو الجمع، وموضوع سورة الأنبياء هو التقارب والدنو ، وأن موضوع سورة الحاقة هو تحقيق الوعود .

إن منهجاً كمنهج التفسير الموضوعي حديث النشأة بالصورة الموجودة الآن، من الطبيعي أن تختلف فيه وجهات النظر.

ومن الجدير بالملاحظة أن هناك مهتمين بهذا الفن، ينهجون نفس النهج الذي ندعوا إليه وعما قريب سيستقر هذا العلم على قواعد محددة المعالم، بينة الشروط يخوضها من كان أهلا لها ووفقه الله تعالى ذلك.

ونسأله تعالى ألا يكون هذا تجنيا على كتابه ولا هضما لجهد من حاولوا في ذلك، ولا ادعاءا أنا نحسن ذلك،إلا بعونه وقدرته. فالفضل للسابق وإن أحسن اللاحق.

الهوامش:

[1] – مجموع الفتاوى 286/7

2– جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ج7/1، ط1، بدار هجر.

[3] – مصطفى مسلم مباحث في التفسير الموضوعي،دار القلم ص17

[4] – مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ص20.

[5] – المرجع السابق، ص22.

[6] – اقترن اسم قارون بفرعون وهامان في آيتين من أصل أربعة.لكننا نلاحظ أن اسم هامان اقترن بفرعون وقارون في آيتين واقترن بفرعون في الأربع الأخرى.

[7]– المعجم الوسيط؛ إخراج كل من:إبراهيم أنيس، عطية الصوالحي، عبد الحليم منتصر، محمد خلف الله الأحمر.دار الأمواج، بيروت.الطبعة الثانية .1410/1990.مادة فسر

[8]– لسان العرب، ضبط خالد رشيد القاضي، دار الأبحاث، مادة فسر، الطبعة الأولى. 2008 دار الأبحاث

[9] – القاموس المحيط 32ص94 باب العين، فصل واو

[10]– الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية ج3 ص1300، باب العين، فصل الواو

[11] – د/ زاهر عواض.المدخل إلى التفسير الموضوعي.ص7

[12] – المدخل ص 21

[13] – المدرسة القرآنية"محمد باقر الصدر، ص13/12 دار التعارف للمطبوعات،بيروت لبنان..

[14] – المدرسة القرآنية،باقر الصدر،ص17

[15] – البداية في التفسير الموضوعي ،دراسة منهجية موضوعية،الدكتور عيد الحي الفرماوي، ص52 ،مطبعة الحضارة العربيةط2 سنة1977

[16] – التفسير الموضوعي للقرآن الكريم،الدكتور أحمد السيد الكومي ص17/16 ط1 1982

17 – التجارة في القرآن الكريم 1 / 21.

18 – أحمد بن عبد الله الزهراني , التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه , ص , 6 مقالة من موقع صيد الفوائد.

19– قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل،عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،دار القلم،الطبعة الثانية1409/1989،ص13

20 – التدبر الأمثل ،ص27

21– مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن ص14/15

22– يقع تفسير البقاعي في ثمانية مجلدات تعرض إلى كل سور القرآن الكريم، ومن تمحله أنه فسر البسملة من كل سورة بما يوافق الموضوع الذي يراه مناسبا لأي سورة، كما انه بالغ في الاستشهاد بنصوص من التوراة وهو ما أثار سخط الكثير من العلماء في زمانه .

23 عنوان بحثه كشوف جديدة في إعجاز القرآن الكريم.قدم له الدكتور عبد العزيز الخياط،وأثنى عليه ثناءا لائقا وحسنا ومن بين ما قال فيه: "كانت دراسته العلمية تطبع ما يكتب وما ينشئ.وقد هداه التدبر في كتاب الله تعالى إلى التعرف على بعض أسرار الإعجاز المعجزة في كتاب الله؛ فحاول اكتشاف "الهندسة الإلهية" في أراء السورة الكريمة .

24– ينظر:تفسير الشوكاني ج2 الصفحة 18